الفصل التاسع عشر

الفجر فضض الأفق ، والبرد قارس ، والأشجار تبدو في العتمة المفضضة هياكل عظمية وأشباحاً . . والصمت ساج ، والنجوم في السماء ما تزال تومض علماً أن أكثرها قد أفل .

الطبيعة نائمة ، والشتاء فرش على الأرض بساطاً من الصقيع . ومن خلال هذه الصورة الشاعرية للطبيعة ، وقد بدت أشبه بعالم الأحلام ، كانت ترى نار ، نار تسطع فجأة وتشع ويصاعد منها شرر يتطاير كاليراعات ثم لا تلبث أن تخبو ليصاعد بدلاً منها عمود من الدخان يلتوي وينتشر كالسحابة ، سحابة فضفاضة تتجه شمالاً تارة وطوراً يميناً أو تلتف حول نفسها كما لو كانت إعصاراً بحرياً .

ووسط هذه الصورة الجديدة المختلفة الألوان والنابضة بالحياة يبرز شبح ، شبح حقيقي يرى منحنياً على وعاء من صفيح ، وهو ينفخ أو يقلب قطعاً من الحطب في الوعاء ، أو يحمل قطعة من الورق المقوى يشعل بها قطع الحطب .

إنه الشيخ ، أراه وأنا واقف بين شجرتي زيتون ، وبندقيتي مستريحة على ذراعي ، وهو مستغرق في إشعال النار التي ستوفر له جواً دافئاً وسط هذا البرد القارس .

إني لألمح وجهه ، وجهه الشاحب الشمعي وقد بدا في وهج النار مثل إنسان الكهوف البدائي قد أشعل ناراً ليصطلي بها ويخيف الوحوش . وتأخذني رقة لهذا الإنسان الذي غادر منزله في غسق الدجى وجاء يرافقني حتى هذا المكان المقفر المبعد في الغوطة ، والشتاء في إبانه والبرد على أشده .

كانت هواية الصيد هي التي تجعلني أهجر الفراش والدفء والبيت منطلقاً إلى بساتين الغوطة لصيد طيور السمّان في هذا الفصل من السنة . ومن لم يمارس هواية الصيد لا يمكنه أن يتصور الباعث الذي يجعل الصياد يسعى في الشتاء ، في عز الشتاء ، في صبارة القّر ، وفي آخر الليل ، ليزرع نفسه بين شجر الزيتون منتظراً بزوغ الفجر واستيقاظ السمّان النائم في الشجر .

أجل أنا صياد ، والمشاعر التي يبعثها الصيد جديرة بأن يضحي الصياد من أجلها براحته وماله . . أجل ، الصياد ينال مكافأته كاملة حين يعيش مشاعر الصيد ، لكن الشيخ ليس صياداً ، فما الذي حمله على أن يعاني ما أعانيه أنا من غير أن ينشد شيئاً أو يحقق غاية ؟ . .

ذات يوم وقف صياد بالقرب من الشيخ ، وقد قدم الشيخ إليه كأساً من الشاي أخذها الصياد شاكراً ، ثم تأمله طويلاً وسأله :

ـ قل لي يا عم ، أراك تحضر إلى هذا المكان قبلنا نحن الصيادين ولست أراك تصطاد فما الذي دعاك لبذل هذا المجهود من غير داع ؟

أجاب الشيخ :

ـ أنا صياد مثلك يا بني .

تساءل الصياد بدهشة :

ـ أنت صياد ؟

ـ أجل أنا ، أنت صياد الطيور وأنا صياد الحقيقة .

فغر الصياد فاه وتمتم :

ـ ماذا ؟

هز الشيخ رأسه مبتسماً وقال :

ـ أجل صياد الحقيقة أنا ، وصدقني إذا قلت لك إن اللذة التي أحسها وأنا أصطاد صيدي هي أقوى بألف مرة من اللذة التي تحسها أنت حين تصطاد صيدك .

وكنت أنا واقفاً بالقرب من الشيخ والصياد أسمع وأضحك في سّري وأنا أرى ما ارتسم على وجه الصياد من انطباعات . . لقد بدا على الصياد أنه شك في أمر الشيخ وأنه ظن أن به مساً حتى أنه شرب كأس الشاي في بضع جرعات ثم شكر الشيخ وابتعد ووجهه ينطق بالعجب . وهنا لم أستطع كبح نفسي فانطلقت أضحك ضحكاً قوياً . كان الصياد جندياً برتبة عريف ، فكيف كان بوسعه أن يفهم ما قاله الشيخ ؟

الشيخ يحب الطبيعة . . يحب أن يرى انفجار الفجر وهو في البستان ، ثم إنه كان مولعاً بإشعال الحطب وبرؤ ية الدخان يتصاعد . كان يتشمم الدخان ملتذاً وخاصة إذا كان الحطب حطب الزيتون . فعن هذه الشجرة المباركة كان الشيخ يقول الكثير ، أما عن الدخان فيقول : الأنف يقبل المشم الطيب ويعرض عن المنتن الخبيث ، وما دمت أشم دخان الحطب برغبة فهذا يعني أنه ذو فائدة للجسم ، فوائد لا تحصى .

وكان للشيخ مع خروجي للصيد قصة . كنت أحدثه عن رحلات الصيد وجو الصيد ومتعة الصيد ، فإذا به يعلن ذات يوم عن رغبته في مرافقتي إلى الصيد . وظننت أن الشيخ رغب في أن يصطاد فأبديت دهشتي وهنا ابتسم وقال : لا ، لن أرافقك لأصطاد . أنا لا أحب أن أصطاد الطيور الجميلة التي تملأ الرياض بشدوها ، ولولا أن الله قال أحل لكم صيد البر والبحر ، ولولا أن الرسول حث على تعلم الرمي لما وافقتك على هواك وأجزتك في أن تصيد .

وهكذا خرج الشيخ معي ذات يوم ، والليل في أواخره وبقايا نجوم توصوص في العتمة .

وتبين أن الشيخ وجد في رحلات الصيد هذه أعراساً وعاش أفراحاً . لقد خفت عليه في البداية من البرد ، وخاصة وأننا لم نكن نملك سيارة خاصة وكنا

نستقل الباص ثم نمشي زهاء نصف ساعة لنصل إلى منطقة الصيد ، ولكنني حين علّمت الشيخ إشعال النار وجد في تلك العملية لذة ما بعدها لذة .

وللشيخ عقل راجح ، وكيف لا يكون له عقل راجح وهو من هو ؟ لقد أثبت أنه يملك القدرة على التأقلم في أي جو وأن يتكيف مع أي وضع يجد نفسه فيه . جعل يحضر معه قنينة فيها كحول وبعض قطع الخشب السريعة الاشتعال وقطعاً من الورق المقوى ، ثم كان يبدأ إشعال الحطب فور وصولنا . كنت أجمع له العيدان وبقايا أغصان الزيتون والجوز المتكسرة من الأشجار في حين يبدأ هو عملية إشعال النار .

كنت أبرح الشيخ وناره ليستغرقني الصيد وأنا انتقل من مكان إلى مكان ، مقترباً من الشيخ أو مبتعداً ، وقد أُبعِد في البساتين حتى لا أعود أراه ، فإذا اشتد الضحى عدت إليه ، عدت لأجده مستريحاً على كرسيه الصغير ، مستنداً إلى جذع شجرة جوز ، غارقاً في تأملاته ، وعلى وجهه طفت انطباعة عجيبة من السعادة . فعلى بشرة هذا الوجه الشفافة كانت ترى إمارات السكينة والطمأنينة اللتين تشيعان في أعماق الشيخ . لقد سبق أن وصفت وجه الشيخ فقلت إنه يذكرني بوجوه القديسين التي خلدتها الأيقونات أو وجوه لوحات الرسام الأسباني أل غريكو . والحقيقة أن وجه الشيخ كان نسيج وحده . صحيح أن الزمن ترك عليه أثاره وشق فيه سككه ، لكن هذا الوجه كان مضاء ، كان مضاء بنور داخلي عجيب حتى أنه كان يلمع ، يلمع كما لو أن الشيخ قد طلا وجهه بمساحيق من أحدث ما أنتجته مصانع أدوات التجميل العالمية ، بل إنني لأستطيع القول إن تلك المساحيق والمعاجين ما كانت قادرة على أن تجعل وجوه الحسان تلمع كما كان وجه الشيخ يلمع .

هذا الوجه لم يعد إذن وجه بشر . . لا ، البشرة الرقيقة الشفافة واللون الشاحب الذي ينم على أن صاحبه قد غزا بالفعل فضاء غير فضائنا وسبح في فلك غير الفلك الذي تسبح فيه أرضنا .

كان يستقبلني هاشاً ، مبتسماً ابتسامته العذبة ، ثم يسألني عن الصيد ،

ويبدي بهجته حين أدخل يدي في جيب صدار الصيد وأخرج حصيلتي من الصيد وألقيها أمامه طيراً بعد آخر . . وهو يفرح ، كالطفل يفرح ، كصياد يفرح ، بل يفرح أكثر من فرح الصياد . وفجأة ومن خلل شعاع الفرح المتألق في عينيه كنت ألمح أحياناً نظرة حزن ، نظرة خاطفة لكنها عميقة وهو يرى الطيور المتمددة أمامه ، وكان حزنه يدوم ثواني ، ثم كان الفرح يعاوده من جديد .

الشيخ كان يفرح إذن لفرحي . ثم لا يلبث أن يتناهض عن كرسيه قائلاً : الإفطار جاهز .

وعلى الرغم من أنني كنت أسرع إلى إسناد بندقيتي إلى شجرة لأشرع في مساعدة الشيخ إلا أنه كان يصر على أن يعد السفرة وحده لأنني متعب ولأن تعبي من الصيد يكفيني .

كان إفطارنا يتكون من بيضتين مسلوقتين وحمص بالطحينة مع زيتون وزيت وبصل ، أما الخبز فكان يحمصه الشيخ على الجمر ، وكذلك يكون قد أعد الشاي في إبريق يضعه معلقاً في منتصف الصفيحة .

كان الشيخ شديد الترتيب لا ينسى شيئاً مما نحتاجه في رحلتنا إلا ويحضره معه ، وكان يأكل بشهية حتى إذا أكل نصف رغيف وبيضة وقليل من الحمص مع البصل توقف ، ثم يقبل رؤوس أصابعه شاكراً لله حامداً على ما وهب . كان يحب الأكل على الجوع ، وينهض عن الطعام وله فيه رغبة عاملاً بقول النبي نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع ، وقائلاً لي : يا بني من تعمل بنصيحة النبي هذه يعش معافى لا تمرض معدته ولا يصاب بالسمنة وأمراضها . عليه صلوات الله كان نوراً أوتي الحكمة وفصل الخطاب .

كان لنا شريك ثالث في طعامنا هو قط بري أشقر مدور الوجه ، ألف الشيخ فصار يتردد إليه ، بينما كان الشيخ يطعمه أحياناً بعض ما أصطاد من عصافير . كان القط متوحشاً لا يألف أحداً ، وإذا رأى إنساناً ولى هارباً ، لكن الشيخ صار صديقاً له ، وأي مخلوق يرى الشيخ ولا يصير صديقه وأليفه ؟ ! . .

ذات يوم عدت من إحدى جولاتي لأرى منظراً عجباً . فالشيخ كان مضطجعاً على الأرض وقد أخذته سنة . . أما المنظر الذي لا أنساه فهو منظر القط الذي كان متمدداً على صدر الشيخ وقد أخذته سنة هو الآخر . . ولو أنني كنت رساماً ورسمت هذا المنظر الفذ لرأى الناس لوحة قلما جاد بها خيال فنان . فما بدا على القط وهو نائم على صدر الشيخ كان أشبه بما يبدو على طفل رضيع توسد صدر أمه . . أجل إلى هذا المدى بلغ حب القط الشيخ واطمئنانه إليه واستئناسه به .

وذات يوم اصطدت بومة . لاحت لي بين الأشجار فصوبت إليها بندقيتي فأرديتها دون أن أعلم أنها بومة . ولقد إتفق أن كان القط بجانب الشيخ الذي كان في انتظاري . . وفي الحقيقة أنني كنت أجد في نفسي شيئاً وأنا أرى عصافيري التي اصطدتها تذهب إلى فم القط عصفوراً بعد آخر ، والشيخ يقول لي شفقاً : مسكين ، لا بد أنه جائع . وفي ذلك اليوم نزعت البومة من الشناقة قائلاً للشيخ : هذه وليمة للقط وهي لن تنفعنا . وأخذ الشيخ البومة وقربها من القط الذي نظر إليها بحذر ثم دنا وشمها ، شمها وكأنه يفحصها ، ثم ابتعد عنها . ولم أصدق . أبيت أن أصدق . فالبومة كانت بالفعل وجبة شهية لمخلوق مثل القط تساوي عشرة عصافير إن لم يكن عشرين . ولقد هز الشيخ رأسه مبتسماً وقال :

ـ أرأيت ؟ إنها تضره ، ولقد هدته غريزته فلم يقربها .

وأضاف مضيقاً عينيه وفيهما معنى بعيد :

سبحان الله ، ما حرمه الله علينا في الشريعة يحذره القط بالغريزة والفطرة . القرآن حرم علينا أكل ذي الناب وذي المخلب والبومة داخلة في التحريم . انظر .

ونظرت حيث أشار الشيخ إلى البومة فإذا دودتان قد خرجتا من فتحتي أنفها فاقشعر جسدي وأنا أرى هذا المنظر . وأضاف الشيخ :

ـ الكون وحدة يا بني ، وحدة كاملة متكاملة . ولقد زود الله المخلوقات

بالغرائز ، وأنزل من السماء من الشرائع ما فيه شفاء للناس . للحيوان الغريزة وللانسان العقل ، ولهذا فإن من ضل عن سبيل العقل كان أحط من الحيوان وأشد تأذياً وأذى . القط مثلاً لا يأكل أكثر من حاجته أما الإنسان فقد يفعل . لا أذكر أين قرأت عن أناس كان يجرون عملية تقيؤ لمعدهم بعد أن يتخموها بالطعام وذلك ليفرغوها وليعاودوا التهام الطعام من جديد تلذذاً به فبربك هل انحط الحيوان يوماً إلى هذا الدرك يا ترى ؟

بعد الطعام كنا نشرب الشاي ، وكان الشيخ بارعاً في إعداده . . يترك الماء على النار حتى يغلي ، ثم يرفع الإبريق ويضع في كفه كمية معينة من الشاي يفرغها في الإبريق ويغطي إبريق بقطعة قماش ويتركه دقائق ثم يصب منه . كان لشايه نكهة خاصة علماً أنه لم يكن يستعمل نوعاً خاصاً مميزاً من الشاي ، وكان يعرض لدخان الحطب قائلاً لي إنه يكتسب من الدخان نكهة لا يكتسبها من النار الصناعية كنار الغاز مثلاً .

ومع الشاي كان الشيخ يدخن ، أجل يدخن ولا تحسبوني أمزح . كانت للشيخ عادة اعتادها منذ شبابه وهي أن يدخن لفافة بعد طعام الإفطار ، وكان يقص علي ضاحكاً كيف أن أباه علم أنه يدخن في شبابه فثار به وعنفه فلما دافع عن نفسه قائلاً إنه لا يدخن إلا لفافة واحدة صاح الأب فيه : (الكل يقول هذا . . الجميع يبدؤون بواحدة وينتهون إلى علبة وعلبتين وثلاثاً . يا بني إحذر ، لا تغلط) . ومع هذا فلقد عاش الشيخ خمسين عاماً مواظباً على عادة تدخين اللفافة الواحدة فقط .

كان منظر الشيخ وهو يدخن جالساً يصطلي بنار الحطب أعجب من منظره وقد تمدد على الأرض والقط البري متمدد على صدره .

كان يذكرني بحديث النبي القائل إن لنفسك عليك حقاً ، وقوله روحوا القلوب ساعة فإنها ملول . . ويضيف متابعاً متأملاً اللفافة تحترق بين أصابعه : رائعة بالفعل ، إن دخانها يذكرني بالسماء .

فلما أبديت دهشتي تابع قائلاً : ألم يقل سبحانه : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ ؟ .

قلت : هل المقصود من الدخان الوارد ذكره في القرآن دخان السجائر يا سيدي ؟

ضحك ، ضحك كعادته ضحكة القوي البهيج الذي يملأ عينيه بالدمع ثم قال :

ـ الدخان الذر ، الذر اللطيف قبل أن يتكثف . ألا تذكر الرؤيا التي رويتها لك مرة عن الذر السديمي ، وقلت لك إن تعبير الذر هو النور اللطيف ، والدخان الذي تحدث عنه سبحانه هو الذر السديمي . ولقد أثبت العلم اليوم ما رأيته في الرؤيا . إن عالم العناصر كله ذرات ، كل ما نراه من ظواهر مادية هو ذرات ، وكل عنصر من العناصر يتألف من ذرات ، والذرات متشابهة ، كل ذرة تتألف من كهارب ، كهارب موجبة وكهارب سالبة ، وتسمى الكهارب الموجبة (بروتون) وتسمى الكهارب السالبة (الكترون) ، هذا بالإضافة إلى أنه لم يبق من العناصر المادية سوى مجموعة كهارب تدور حول النواة ـ البروتون ، وأن لكل عنصر عدداً معيناً من هذه الألكترونات ، وأن في الوسع تحويل العنصر إلى عنصر آخر بتفكيك أجزاء ذرته كما يحدث في الشمس حين تفكك الحرارة عنصر الهيدروجين ، ثم يعاد توليف ذرات هذا العنصر بالحرارة أيضاً مشكلة عنصر الهليوم مع إطلاق طاقة حرارية هائلة . والكهارب ـ الألكترونات التي تدور حول النواة في كل عنصر تتحرك بسرعة هائلة حتى أنها تبدو كالسديم في حركتها . أما عن طبيعة هذه الكهارب وسبب حركتها فلقد ظل ذلك مجهولاً . ولقد أدى تحليل الألكترون والبروتون إلى الوصول إلى الفوتون ، وتعريبه الذريرات ـ لاحظ هذه التسمية . والبروتون وهو الكهرب يساوي ١٨,٤٠٠,٠٠٠ فوتون ، والألكترون أي الكهيرب أو الكهرب السالب يساوي ١٠,٠٠٠ فوتون . والفوتون ضوء والضوء نور ، نور وحركة وامتداد . ويرى بعض العلماء أن الموجات الكهربائية هذه التي تشكل بنية المادة

يمكن أن تكون موجات احتمالية من غير وجود مادي على الاطلاق مهما كان نوع هذا الوجود ويتفق علماء مثل أدينغتون وجينز على أن الطبيعة النهائية للكون هي طبيعة عقلية ، وفي هذا يقول أدينغتون أن مادة العالم هي مادة عقلية ، ويردف أن المادة العقلية ليست منتشرة عبر الزمان والمكان بل المكان والزمان جزء من المخطط الدوري الذي هو في نهاية المطاف مشتق من المادة العقلية نفسها . أرأيت كلمة مشتق ، وهل تذكر كيف رأينا في الرؤيا أن الموجات الكهربائية المنطلقة من أصابع شقيق أنور تعني أن الكهرباء مشتقة من النور ؟ إن كل ما نعرفه عن الكهرباء هي الطريقة التي تؤثر بها في أدواتنا القياسية . والوصف المضبوط لسلوك الكهرباء على هذه الشاكلة يعطينا مواصفاتها الرياضية وهذا بحق كل ما نعرفه عنها ، الأوصاف وليست الماهيات . لقد قبلت الكهرباء ضمن الأصول والأجسام التي لا تقبل الإرجاع إلى أصل سابق عليها لانها تستعصي على التحليل . ولقد ثبت أنه ما من الكترون أو بروتون أو نيوترون أو جسم كوني إلا وتتواجد قبالته معادلته اللامادية ، ومعنى هذا أن أكثر النظريات الفيزيائية حداثة تقدم تأكيداً أشد على تهافت المادية وتشير بلسان العلم المختبري والمعادلات الرياضية المركبة إلى التواجد الروحي في قلب الكون وفي صميم الذرة . لقد كشفت المواقع الأخيرة لمسيرة العلم الجاد عن حقيقة أن المادة نفسها تحمل في تركيبها بعداً غيبياً ، والمادة في القرن العشرين اقتربت من عالم الفكر المجرد ، بل دخلته وأصبحت في تقدير الثقات عملية رياضية .

وأخذ الشيخ نفساً من لفافته ثم أطلق دخانه وجعل يتأمله ثم تابع قائلاً : وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب . ولقد قلنا إن دوران الكهارب حول النواة هو من السرعة بحيث يتخذ شكلاً سديمياً ، لاحظ هذا التعبير ، شكل سديمي ، لقد عدنا إذن إلى السديم من جديد . عدنا إلى الذر اللطيف ، عدنا إلى السماء التي هي دخان .

وهز برأسه نافضاً لفافته ثم نظرني متأملاً وأضاف :

ـ وبعد فما موقف الماديين من هذه النتائج المذهلة للنظريات الفيزيائية الذرية ؟ طبعاً الاكتشافات لم تقدم ولم تؤخر ، ومن العلماء المتوغلين في أبحاث

الذرة من هم ماديون لا يؤمنون بالبعد الغيبي الذي تحدث عنه علماء مؤمنون كما ذكرنا ، ولقد تحدثنا عن قضية كون الايمان -فطرة والالحاد فطرة ، والفطرة قبل العقل وسابقة للعقل ، وقال سبحانه : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ ، وقال : ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ . فالله نفسه يعلن أن العقل ليس الطريق إلى الإيمان وأن القلب هو الطريق . قال سبحانه : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ ، وهو القائل : ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ ، سبحانه خلق الإيمان والإلحاد لحكمه أرادها سبحانه .

ونظر إلي نظرة طويلة نفاذة واستطرد يقول :

﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾ ، وقال : ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ ، وقال : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ ، وقال أيضاً في هذا المعنى (لهدمت صوامع وبيع) . . لاحظ هذا التعبير ، لولا الصراع لهدمت الصوامع . إن طبيعة الأسماء كما قلنا تقتضي الصراع ، والصراع الفكري يسبق الصراع الجسدي ، إذ كل صراع خارجي أساسه صراع باطني . لولا الجدل يا بني ما ظهرت الأديان ولا الأخلاق ولا ظهرت العلوم الإلهية ، فمن الأخذ والرد والكر والفر قامت الصوامع والبيع . صدق يا بني لولا صراع الأسماء ما وصل الفكر الإنساني والفكر الإلهي إلى ما هما عليه اليوم . إن معظم أفكاري وآرائي إنما استنبطتها لدفع هجوم الملحدين ، ولولا الملحدون ما كانت لآرائي أن تكون . لحكمه خلق سبحانه الجدل بين الناس .

وأخذ الشيخ نفساً عميقاً ملأ به صدره وأضاف قائلاً :

ـ لقد كان لي ذات يوم شريك في المكتبة ملحد . كان مؤمناً بالعلوم المادية ونظرية التطور الداروينية ونظرية الإرادة للامارك ، وكنا نتجادل ، ونقضي الساعات نتجادل ، وكنا أشبه بملاكمين في حلبة الملاكمة أسدد إليه لكمة ويسدد

إلي لكمة حتى إذا تعبنا قعدنا نستريح وكل منا يدرس اسلوب الآخر . . ثم حلت شركتنا ، وفرقت الأيام بيننا ، وفتح شريكي مكتبة في حي آخر . هل تصدق أن هذا الرجل ظل يزورني بين الحين والحين طالباً إلي أن نتجادل وأن نتناقش . كان يقول لي جاداً : يا أخي جدالك متعب لكنه ملذ ؛ أجل ملذ . أين تلك الأيام التي كنا نقضيها متجادلين كأننا ديكان متنازعان .

ورمى الشيخ ببصره إلى الافق البعيد وأضاف :

ـ لولا الجدل ما تم ظهور الله على النحو الذي يراه أهل البصيرة ، وبالجدل وحده استوى الله على عرش قلوب بني آدم .

قلت مازحاً :

ـ أهذا قبلت صحبة أبي الفوز يا سيدي ؟

نظر إلي وعيناه تومضان ثم ضحك ، ضحك ضحكه الطفلي .

ولأبي الفوز هذا قصة ، فهو أحد الصيادين الذين كانوا يحيطون بنا كل يوم جمعة نخرج فيه إلى الصيد كان يحضر في سيارة مع صياد آخر كبير السن يلقب بأبي النور : وأبو النور هذا يدعى شيخ الصيادين نظراً لسنه ولطول باعه في الصيد . كان أبو النور عملاقاً عريض الألواح فوق الستين من عمره يقف وسط مرج فسيح مقلباً وجهه في الفضاء باحثاً عن طيور السمان . . وكان الرجل قادراً على رمي الطير مهما بلغ إرتفاعه في الفضاء . أما أبو الفوز فهو جمركي قصير أشقر مائل إلى البدانة كسول أكول لا يكاد يفارق السيارة التي يأتي فيها مع أبي النور . ولم يكن يجيء إلى منطقة الصيد ليصطاد بقدر ما كان يجيء ليتسلى يقضي الوقت متمدداً على العشب أو نائماً ، ونادراً ما كان يوجه بندقيته إلى طير فإذا فعل فقلما أصاب طيراً بنار بندقيته .

وأبو الفوز دجال سارق صيد من الطراز الأول . ذات مرة أبصر في الفضاء طائر حمام أهلي فرماه ، ثم أسرع فانتزع ريشه وألقاه في مؤخرة السيارة . وبعد قليل ظهر بستاني شاب كان يقلب وجهه في السماء ثم سألنا عما

إذا رأينا طائر حمام أهلي فكان أبو الفوز أول من أنكر أنه رآه. وتعجب البستاني قائلاً : ولكنني رأيته بعيني يحوم فوق هذه الأشجار فأين ذهب ؟ ولقد لعب فأر الشك في عب البستاني إلى حد أنه جعل ينظر إلينا الواحد بعد الآخر متشككاً مرتاباً . وأخذتني أنا الحيرة وما كان بوسعي فعل شيء . فهل كنت سأشي بما فعله أبو الفوز ؟ وكيف أفعل هذا وأنا صياد وهو صياد وجميع من حولنا صيادون ؟

ولقد قدر لأبي النور شيخ الصيادين أن يكون هو من كشُف حقيقة صاحبه . . لقد رمى بدوره طائر سمان ، ثم جعل يبحث عنه في المكان الذي حدده لسقوطه فما وجده ، ثم سأل أبا الفوز عنه فأنكر أنه شاهده علماً أن أبا الفوز كان هو الذي التقط الطائر وانتزع عنقه وألقاه في صندوق السيارة أيضاً . وبالمصادفة فتح أبو النور صندوق السيارة فرآى آثار الجريمة . . رآى طيره الذي افتقده كما رآى طير الحمام المنتوف الريش، ولقد حمل ما وجده وواجه صاحبه به فأنكر أبو الفوز وكذب بينما كان وجهه يحمر بشدة .

والخلاصة أن أبا النور عرف ما جرى . قال لنا بعد أن ابتعد أبو الفوز عنا : عجيب أمر هذا الإنسان ، لئن رمى الطائر الأهلي وذبحه ونتف ريشه ثم كذّب على البستاني فكيف يكذب علي أنا صاحبه وصديقه بل وصديق أبيه من قبله ؟

وقص أبو النور من ثم علينا كيف أنه يذهب في صباح يوم الجمعة إلى بيت أبي الفوز ويدق عليه الباب ويوقظه من نومه وينتظر حتى يرتدي ملابسه ويخرج إليه ، وبالإضافة فأبو الفوز ما كان يحضر شيئاً من الطعام معه ، وكان يشارك صاحبه طعامه ، وما كان يساهم أيضاً بشيء من ثمن المحروقات . . وليس هذا فقط فلقد كان لا يحجم عن أن يطلب إليه بعض طيور السمان التي صادها الصياد العجوز ليتباهى أمام أهله بأنه قد صادها فلا يتردد شيخ الصيادين في إعطائه بعض صيده . وختم أبو النور حديثه قائلاً :

ـ تصوروا كم أحسن إليه وكم يسيء إلي . لقد سرق الطير الذي

اصطدته قبل قليل وجعلني أبحث عنه ساعة دون أن أجده ، ووالله لو أنه اعترف إلي بأنه هو الذي أخذه لما اكترثت . . أما أن يسرق ويكذب ، يكذب علي أنا صاحبه ! !

هذا النموذج العجيب هو الذي قبل الشيخ صحبته . اتفق ذات مرة أن كنا نأكل ، وكان أبو الفوز قريباً منا فدعاه الشيخ ليشاركنا الطعام فلبى الدعوة . . لباها قائلاً :

ـ لقد أفطرت قبل قليل ولكن سآكل لقمة .

وكانت لقمة أبي الفوز وجبة كادت تأتي على طعامنا كله . فلأبي الفوز طريقته في الأكل ، فهو يقتطع من الرغيف ربعه ويكوره ثم يغمس في الإدام ، ثم يغرف الإدام بالخبز ، ويحمل الجميع إلى فمه ليبدأ عملية لوك اللقمة التي تبرز في جانب من جانبي فمه كأنها كرة من كرات مضرب اليد .

لقد أتى الرجل على معظم طعامنا علماً أنه كان قد أفطر بالفعل قبل ربع ساعة فقط مع صاحبه أبي النور . لقد رأيت من الرجل العجب العجاب في مجال الشره إذ أثبت أنه قادر على أن يأكل وجبة كاملة كل ساعة أو كل نصف ساعة دون أن أدري أين يذهب الطعام الذي يلتهمه .

كان يشاركنا طعامنا ، ثم يشرع في تناول الشاي ممتدحاً الشيخ على طريقة إعداده له ومنطلقاً من ثم في ثرثرة لا نهاية لها عن أساليبه التي لا تحصى في مجال كشف حيل المهربين والطرق التي يلجؤون إليها في التهريب كصنع أماكن خاصة في السيارات في أبواب السيارة أو في صندوقها أو تحت صندوقها . . وما كان الرجل ليخجل من الاعتراف بأنه أخذ من مهرب كذا ألفاً ليستر عليه ، وأنه أخذ من مهرب آخر عدداً من الساعات ليسمح له بإدخال الساعات إلى آخر تلك الأحاديث المعروفة عن التهريب .

المهم أن الشيخ كان يستمع أبا الفوز والابتسامة لا تفارق فمه يهز رأسه ، والرجل يقص عليه القصص التي تجعل الدم يفور في العروق ، وكيف لا وأبو الفوز مثال المثال القائل حاميها حراميها .

شخصياً كنت أستمع حكايات أبي الفوز وأنا أكبح رغبة في أن أنقض عليه وأنشب في أظافري وأغرز فيه أسناني . كان منظره فقط يثيرني ويجعلني أتوتر وانفعل . . وعبثاً حاولت أن أهدىء من إنفعالي كلما رأيت هذا الرجل المقزز .

أما الشيخ فلقد كنت عالماً بموقفه من أبي الفوز . . وهل تراني نسيت محاوراته معي عن الأسماء والأسماء المضادة وحقيقة الأسماء وعين الأسماء الواحدة وو . . ومع هذا فأحاديث الشيخ كانت شيئاً ومعايشة شيطان اسمه أبو الفوز كانت شيئاً آخر .

قلت للشيخ ذات يوم :

ـ أريد أن أسألك سؤالاً يا سيدي .

قال : تفضل .

ـ أرجوك أن تصارحني ، هل أنت قادر على أن تحب إنساناً مثل أبي الفوز ؟

رماني بنظرته النفاذة السريعة الانقضاض فأردفت القول :

ـ أنا أعلم ما ستقوله عنه ، أنا لا أنسى كلمة من كلماتك ، ولكنني أجدني مع هذا عاجزاً حتى عن إحتمال رؤية هذا الرجل . . هذا ليس إنساناً حتى ليس قرداً ، هذا . . هذا جرذ .

وهنا ضحك الشيخ . كانت لفافته بين شفتيه فانتزعها بسرعة ومال إلى أمام وهو يضحك ضحكاً صامتاً ولكن قوي هزه هزاً . ثم جعل يهز رأسه كالمروحة قائلاً :

ـ يا الله . من أين جئت بهذا الوصف ؟ ماذا قلت ؟ ماذا قلت ؟

كررت كازاً أسناني :

ـ هذا جرذ وليس بشراً .

واستطردت أسأله :

ـ أنا لا يمكنني أن أفهم يا سيدي . إنسان مثلك كيف يمكن أن يتقبل صحبة هذا . . كيف تنصت له . . كيف تسمع قصصه وأحاديثه ؟

عاد إلى هز رأسه وأجاب :

ـ أنا لا أسمعه هو بل أسمع كلام الصورة .

ـ صورة ؟ أية صورة ؟

ـ صورة أم كلثوم . . ألا تذكر . . هل نسيت ؟

أشرت إلى حيث كان أبو الفوز متمدداً مع العشب على مرأى منا وقلت : صوت هذا صوت أم كلثوم ؟

عاد إلى الضحك . . منظري ، هيئتي ، عيناي ، نظرتي ، يدي الممدودة ، كل هذا كان يدل على مدى دهشتي البالغة . ولقد أضحكه ما بدوت عليه من الدهشة ، ثم رفع كتفيه وأخفضهما وقال :

ـ ليس صوتها بل مثل صوتها .

قلت وأنا أكاد أخرج عن طوري :

ـ لم أفهم يا سيدي . لم أفهم .

ـ لنقل إنه تتمة لصوت أم كلثوم .

ـ كيف ؟

ـ يا بني الصوت أصله صورة ، والصورة اسم ، والأسماء لله . صوت أم كلثوم صوت الحب فهو صوت الأنا الكلية، وصوت هذا صوت البعض وهو صوت الأنا الفردية. عندما أسمع صوت أم كلثوم أسمع صوت الكلي، وعندما أسمع صوت أبي الفوز أسمع صوت الفردي ، ثم أعود إلى نفسي فأسمع الصوتين، أسمع صوتاً مثل صوت أم كلثوم أي صوت الكلي أو صوت الحب، وصوتاً مثل صوت أبي الفوز ، وهو صوت البغض أي صوت الفردي . . ولأنني مجمع البحرين ، أي مجمع الصوتين ، صوت الكلي وصوت الفردي ، فأنا بحاجة إلى أن أسمع صوت الكلي صادراً عن أم كلثوم وصوت الفردي صادراً عن أبي الفوز ، ولأنني مجمع ، ولأنني واحد ، ولأنني ممثل الواحد فأنا أرى الله لأحد

أمامي متجلياً في صور ومسموعاً في أصوات . هل عرفت الآن لماذا أسمع أبا الفوز وأصطبر عليه ؟

قلت بسرعة وكأني ألقيت القبض عليه متلبساً بجريمة :

ـ تصطبر عليه ؟ هذا اعتراف خطير . أنت لا تحبه إذن ، وأنت تعترف . أنت تصبر عليه فقط .

ابتسم ابتسامته اللطيفة وقال :

ـ ولا الله يحبه أيضاً .

ـ ماذا ؟

ـ أجل ولا الله يحبه أيضاً . لقد قال سبحانه في الذين يحبهم : ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ ، وقال : ﴿ ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالاً وعدده ﴾ . أمثال أبي الفوز مخلوقات خلقت للعلم فقط كالحيوانات التي يتعلمون بها في المخابر ، ونحن المتعلمون فقط ، فلا وصول إلى معرفة الواحد إلا عبر سماع صوتي أم كلثوم ـ أبي الفوز أو الكلي ـ الجزئي .

وأشار الشيخ بيده إلي وهو يستطرد قائلاً :

ـ فيك أنت أيضاً بعض من أبي الفوز ، وفيّ أنا أيضاً ، وفي كل إنسان على ظهر هذه الأرض . ألا تذكر حديث النبي عن الشيطان الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وأن عليه السلام له شيطانه ولكن الله أعانه عليه فأسلم وأغمض عينيه ورمشت جفونه دلالة على تأثره ثم فتحهما متابعاً :

ـ وأنا سلمت أيضاً كما سلم النبي وذلك بفضل التوحيد . الاسلام سلام ومن بلغ مقام اليقين دخل الإيمان في قلبه فسلم من شيطانه . وما الشيطان ؟ إنه الوسوسة ، إنه صوت الشر . إسمع هذه الرؤيا التي رأيتها ذات مرة ، رأيتني في مكتبتي هذه ، ومعي قريبة لي اسمها نجوى . وهي امرأة عُرفت بسوء الطوية ، ولقد أرادت أن تحاورني فأشرت إلى عدد من الكتب وضعت بيني وبينها وقلت : لا لن أسمح لك بأن تحاوريني . . حديثُك وأعرفه . فأشارت إلى زوجها الواقف بالباب وقالت له لم يعد لنا دور معه . وبرز من ثم دهان جعل يدهن الجدران ،

فانسحبت إلى غرفة داخلية ظهر فيها شقيق لوزير الاعلام السابق المتوفى ، وكان شبيهاً بأخيه جداً ، ومعه شقيقته واسمها نورا ، وكان أمامنا أصص من عريشة خضراء اسمها التلفون أي الهاتف . . والتعبير هو أن محاولة المرأة التي اسمها نجوى لكي تحاورني اشارة إلى النجوى الذاتية الشريرة ، إذ المرأة إشارة إلى النفس فهي هنا النفس الأمارة ، ورفضي أن أحاورها معناه خلاصي من أسر النفس الأمارة أو الوسوسة أو صوت الشر ، وذلك بفضل العلم اللدني الذي أشير إليه بالكتب . فالمسلم لا يسلم من شيطانه ما لم يكشف له أصل شيطانه وهو الاسم البعيد كما قلنا وعندئذ يسلم هو ويسلم شيطانه . . وإلى هذا أشير بدهن الجدران أي جلو مرآة القلب . والغرفة الداخلية هي القلب المنّور بنور التوحيد وهو نور العلم اليقيني ، ولهذا رأيت شقيق وزير الاعلام السابق المتوفى فالموحد مات ، أو ماتت نفسه ، فالعلم العقلي حل محله العلم الذوقي . وكان شقيق وزير الإعلام هو ممثل هذا العلم الجديد . . أما كونه شبيهاً به ، وجهُه يشبه وجهه ، فذلك إشارة إلى أن العلم العقلي يعتمد العقل . . وعند الكشف وبعده يتبين أن العقل الجزئي جزء من العقل الكلي ، فالنور واحد وإن ظهر كلياً أو جزئياً ، ولهذا كان وجه العلم الجديد أي صوت العلم الجديد أو وحي العلم الجديد وجه العلم القديم أو صوت العلم القديم أو وحي العلم القديم . وأشير إلى هذا بوجود شقيقة الوزير وأخيه واسمها نورا . أما أصص عريشة التلفون فهي ممثل الوحي اللدني الجديد ، إذ التلفون هاتف والهاتف وحي ، وهذا الوحي هو ما رمز إليه بخضرة العريشة والخضرة الروح .

والمهم أنه بفضل التوحيد نجوت من صراع الخير والشر وجدلهما ، والتوحيد من الواحد ، والواحد في القلب وفي القلوب . فإذا كان هذا مدى فضل الله علي أفلا أكون بعد ذلك عبداً شكوراً . . ثم أفلا أكون ممثل اسم الرحيم فأرحم عباده مثلما شمل اسم الرحمن رحمة العباد عامة ؟ ! . .

وأشار الشيخ من ثم إلى شيخ الصيادين أبي النور الذي كان واقفاً منتصباً في المرج كسنديانة أثرية عميقة الجذور مباعداً بين رجليه مقلباً وجهه في السماء واستطرد قائلاً :

ـ هذا أبو النور صاحب أبي الفوز أو صاحب أبيه . إنه لا يحبه ولكنه لم يكف عن مساعدته . ألم تسمع ما قال . . ينقله ويطعمه ولا يدعه يدفع شيئاً من ثمن المحروقات ويحلم عنه إذا جهد عليه . . بل ليذكرني أبو الفوز بالقبول العلمي (طلبة كلية الطب الذين يقضون أعواماً مع الجثث المعدة للتشريح . وكيف بوسع إنسان أن يحب جثة ، وأن يعيش مع جثة ؟ ومع هذا فإن طلاب كلية الطب يحبون الجثث بمعنى أنهم يتقبلونها قبولاً علمياً مدركين أنهم لا يحققون أهدافهم إلا عن طريقها ، حتى أن شعار الطبيب جمجمة ، وترى هذه الجمجمة موضوعة أمامه على طاولته . تصور جمجمة إنسان على طاولة أمامك ، تصور هذا المنظر .

تمثلت بالفعل هذا المنظر وقلت :

ـ هذا مدعاة للاشمئزاز .

ـ لأنك لست طالب طب ، ولو كنتَ لأحببته .

وسمع في تلك اللحظة صوت طلق ناري ، وكان أبو النور هو الذي رمى طيراً كان يحلق عالياً . . ولقد تابعت بعيني الطير وهو يهوي حتى إذا وقع على الأرض مضى أبو النور إليه والتقطه ، فتابعت :

ـ وأنا لا أستطيع أن أتصور كيف أن أبا النور يعامل صاحبه على هذا النحو .

ـ ذلك لأنك لم تبلغ مقام اليقين ولو بلغته لفعلت . يا بني الرحمن شمل برحمته العباد كافة وهذه هي الرحمانية الشاملة .

قلت محتداً :

ـ ولكن أبا الفوز وأمثاله يتجاوزون الحدود والقوانين ، إنهم مؤذون قال :

ـ القصاص لهم بالمرصاد . أفلم نتحدث عن القصاص من قبل ؟ ما وجدت القوانين أصلاً إلا بسبب وجود أبي الفوز وأمثاله . من يتجاوز حده يقاصص ، هذا هو حد العدل الإلهي .

فكرت في ما قاله الشيخ ثم قلت :

ـ أنا أرى يا سيدي أن أمثال أبي الفوز هم الفائزون .

ظهر على وجهه العجب وتساءل :

ـ كيف ؟

ـ لأن هؤلاء هم الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف . لقد عشت عدواً لهؤلاء ومجاهداً إياهم طوال حياتي . فأمثال أبي الفوز يثيرون أعصابي . إن حرباً سجالاً أبدية بيني وبينهم ، ومع هذا فكثيراً ما أفكر في هذا الفريق من الناس الذين هم الكثرة الكاثرة والذين هم الغالبون . . أتسألني لماذا ؟ لقد كان لي منهم صديق ، ظننت أنه صديق ، ثم تبين لي أنه يلبس لباس شاة على قلب ذئب . لقد تكشف لي عن أبي الفوز آخر . . هذا الصديق كنت وإياه زميلي عمل ، منصبي مثل منصبه ومركزه مثل مركزي ، ولكن الرجل لم يكن ينهج منهجي . أنا مثلاً لم أؤمن بمبدأ الوساطة طوال حياتي ، وعددت اللجوء إلى هذا الاسلوب مهانة لي وحطة لكرامتي . . في حين أن صديقي كان على العكس يعتمد أسلوب الوساطة في كل خطوة من خطواته . . ومع شديد الأسف لقد نجح صديقي وفشلت أنا . صار هو مديراً بينما بقيت أنا موظفاً صغيراً . وظل الرجل يتسلق سلم النجاح درجة درجة . . تقرب من المسؤولين الكبار وداهنهم فقربوه واصطفوه واصطنعوه لأنفسهم وكانت النتيجة أن الرجل صار مسؤولاً بدوره . . صار يكلف بمهام فيسافر لعقد صفقات وإبرام عقود مشاريع ، وتكون زياراته ورحلاته بالمجان طبعاً ، وإقامته في البلد المضيف بالمجان ، وإلى هذا فهو ينال تعويضاً عن المهام التي يقوم بها ، ويعود محملاً بالهدايا . ولقد استغل الرجل منصبه فجعل لا يخطو خطوة إلا بثمن . إن أراده صاحب حاجة لحاجة قضاها له بثمن ، وباختصار تصرف الرجل تصرف الكلب لمن هم فوقه وكالذئب لمن هم دونه . . ورغم أن صيته سار في المؤسسة على أنه كذا وكذا إلا إن هذا لم يؤثر فيه ولا في عمله . لقد استمر يصعد سلم النجاح ويزداد غنى وقوة ونفوذاً . لقد رأيت هذا كله وأنا ما زلت في منصبي المتواضع مصراً على

التمسك بمبادئي ومثالياتي وعقيدتي . لقد عشت حياتي موظفاً صغيراً مغموراً ، وأجدني وأنا على مشارف الاربعين من عمري ما زلت أمثل الفشل بكل معانيه . فهل هذه هي نتيجة السير على الصراط المستقيم يا سيدي الشيخ ؟ أنا أرى أن أبا الفوز وأمثاله قد جنوا قطاف كل شيء حتى قطاف التوحيد ما دامت الرحمة قد عمتهم والعفو قد شملهم ، في حين ما زلت أجدني أنا خالي الوفاض صفر اليدين قد خرجت من التجربة بخفي حنين . فما هذا العالم اللامعقول الذي نعيش فيه يا سيدي ؟ إن أسلوب ميكيافيلي هو المهيمن وهو الواقعي وما يزال الأقلون أمثالي ضعفاء مستضعفين وعلى ما يبدو فإن هذه التمثيلية مستمرة إلى ما لا نهاية ، فكيف بوسعك أن تقنعني يا سيدي بأن أمثالي هم الفائزون وأن أبا الفوز وأمثاله هم الاراذل والبهائم والجثث المعدة للتشريح في قاعات كلية الطب ؟

كان يستمعني مخللاً لحيته البيضاء بأصابعه ، وفي عينيه معنى بعيد ، حتى إذا أفرغت ما في صدري نظر نظرة في الفضاء الوسيع ثم سألني :

- هل قرأت عن عالم المايا عند الهنود ؟

- أجل ، إنه عالم الظواهر .

- عالم الظواهر ، هذا حسن . هل تدري أن متعبدي الهنود من الهندوس والبوذيين يدعون كل ما بين أيديهم من مال ومتاع ويهجرون المركز والجاه والعائلة والبيت ويتوجهون إلى الغابات ليعيشوا فيها . . يعيشون في أكواخ بسيطة عيشة الزهاد ، ويعتمدون أسلوب الفقراء لتأمين قوتهم ، فهم يدورون على القرى سائلين كسرة خبز يقتاتون بها ثم يعودون إلى الغابة من جديد .

وحول من ثم نظره إلي وغرزه كالخنجر في عيني وهو يتابع قائلاً :

- ترى لماذا يفعل فلاسفة الهنود هذا ؟ ما الذي يحملهم على هجر زينة الحياة الدنيا وزخرفها ليرتدوا إلى الطبيعة ليعيشوا بين أحضانها وظهرانيها ؟ يا بني عالم المايا عالم خداع شرير متقلب لا أمان له . كان الرسول يأكل ذات يوم مع أصحابه ، وهم في وليمة ، فنظر الرسول إلى الطعام الطيب وسأله أحدهم : إلى

أي شيء يصير هذا ؟ فأجاب الرجل على استحياء : إلى ما قد علمت يا رسول الله ، فقال الرسول : وكذلك حال الدنيا . وقال سبحانه : ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ . فالله سبحانه وصف زينة الحياة الدنيا بأنها فتنة . وقال إن رزقه هو خير وأبقى ، وقال سبحانه : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك وخير أملاً . فالباقيات الصالحات هي الأمل الخير وهي الخير عند الله ﴾ . وقال سبحانه : ﴿ وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون ﴾ ، وبيّنا أن جوهر العبادة العلم ، ولب العلم المعرفة التي هي نور العرفان . والسؤال يا بني ما حياة الإنسان ولم يحيا ؟ أنت ضربت نفسك وصاحبك مثلاً لأنموذجين من البشر ، أنموذج مد عينيه إلى زينة الحياة الدنيا وأنموذج ابتغى معرفة ربه وشكوت حالك قائلاً إن صاحبك قد نجح بينما أنت قد فشلت .

وبعد فما تعريف النجاح ؟ هل هو النجاح المادي يا ترى ؟ هل هو المال والمنصب والبيت المؤثث والسيارة والتفاخر بالأموال والأنساب ؟ لقد وصفت صاحبك بأنه كلب لمن دونه ، والكلب ذليل يا بني . فصاحبك دفع ثمناً باهظاً لكي يضمن صعود سلم النجاح . إن عليه أن يواجه عدوين المنافسة وبذل ماء الوجه حتى يحقق ما يصبو إليه ، وهذا ثمن لا يرتضي بعض الناس دفعه . ثانياً أنت قلت إن الرجل صار ذا منصب وجاب الدنيا واشترى بيتاً في أرقى حي وأثثه أحسن أثاث .

وسكت الشيخ وقد جعل يهز رأسه ناظراً إلى الأفق من جديد ثم استطرد قائلاً :

ـ تذكرني يا بني بحالي أنا . لا أكتمك وأنت صفيي وخليلي أن أم يحيى تحب التفاخر بين أخواتها وصواحبها وجاراتها ، وأنت ترى التبدل الذي طرأ على حياتنا في الأعوام الأخيرة . ـ لقد انطلقنا نقلد الغرب تقليداً أعمى ، ومن جملة تقليدنا له هذه البدعة التي ظهرت في تأثيث البيوت أجمل أثاث وتزيينه بالديكورات واللوحات والتهافت على شراء الثلاجة الأمريكية والفيديو والغسالة

الأوتوماتيكية والستائر الأجنبية وإعادة كسوة المنزل حتى أن طقم الحمام وحده يكلف ألوف الليرات. . وإلى هذا فلا بد من وجود سيارة بالباب تحملنا إلى المصايف ، والأفضل أن يكون لنا بيت في هذه المصايف ، إلى آخر هذه الأسطوانة التي صرنا نسمعها ليل نهار قائمين وقاعدين وعلى جنوبنا . أجل لا أكتمك أن زوجتي طالبتني بحقها في الحياة . فأختها ليست أفضل منها وكذلك صواحبها . . وحديث الجارات يتركز في ما فعلت فلانة بمنزلها وماذا اشترت علاّنة من حاجات مهربة وو . . بالطبع هي لم تشرح لي هذا بالتفصيل ، فأنت تعرف منطق المرأة وحسن سؤالها . . لقد جعلت تحاول إقناعي بالتدريج ، فالبيت بحاجة إلى ترميم ، والمطبخ بحاجة إلى تجديد ، والأثاث بحاجة إلى تبديل . وكانت حجتها دائماً ولدنا ومستقبل ولدنا وضرورة أن نبدو أمام الناس بمظهر حسن مناسب . والخلاصة أننا بدأنا نسير مع السائرين وننطلق مع المنطلقين . أذكر أننا حين جددنا المطبخ ظللنا شهراً كاملاً بلا مطبخ . . شهراً كاملاً والبيت كله في حال من الفوضى البالغة . ليس هذا فقط فلقد تبين أن المتعهد مرتبط بعدة بيوت ، وكان يكذب على أصحاب كل البيوت ، وكان يعمل عندنا ساعتين وفي بيت آخر ساعتين وهكذا . وأحياناً كان لا يحضر طوال أيام بالمرّة . والخلاصة أننا بعد إنقضاء شهر العذاب هذا انتهى العمل في المطبخ وتحول من حال إلى حال . آه يا بني صدق رسول الله إذ قال الدنيا حلوة خضرة ، فالمطبخ بدا آية في الجمال ، أما ما تكلفنا فلا تسل . لقد بلغ من إعجابي به أنني صرت أشرب قهوتي فيه ، هل تصدق هذا ؟ وليس هذا المهم ، بل المهم أن هذا الشعور بالفرحة لم يدم ولم يعش طويلاً . لم أدر كيف فتر وتلاشى لكنه فتر ثم تلاشى . لقد عاد مع مرور الأيام كالمطبخ القديم . لم أعد أميز السيراميك ولا الرخام ولا الخزن الأمريكية . لقد صرت أرى هذا كله ولا أراه ، هل تفهم ما أعني ؟

هززت رأسي بالإيجاب وتابع هو :

ـ إنها العادة يا بني العادة كفيلة بالقضاء على كل سعادة . العادة التي تجعل مشاعر ساكن القصر كمشاعر ساكن الكوخ . وانتقلنا من المطبخ إلى

الغرف فجددنا أثاثها ثم استبدلنا بالسجاد القديم سجاداً جديداً ثم ، ثم . . والخلاصة أنني وجدتني في دوامة ، في دوامة لها أول وليس لها من آخر . كلما فرغت من شيء وجدت أمامي أشياء . وفي كل مرة كان علي أن أشقى وأن أتحمل فوق طاقتي وأن أركض خلف البّلاط والدهّان والبخاخ والنجار وفي كل مرة لم أكن أنجز شيئاً حتى تبلغ روحي التراقي .

وكان بيتنا يتقدم ، وما من شك في أنه تحسن . ولكنني أعود فأذكرك بالعادة وما تفعله العادة . كنا نفرح بالجديد أياماً ثم تبلى الفرحة وتعود مشاعرنا كما كانت .

آه يا بني ، عالم المادة هذا عالم مجنون ، عالم يمتص من الإنسان روحه ثم يرميه . هذه المتاهة التي دخلها إنسان العصر الحديث فما خرج منها . هذا ضروري وهذا لازم وهذا لا بد منه ، وعليك أن تركض وتشقى وتكدح ، ومن أجل ماذا ؟ من أجل أن نفاخر الآخرين ويفاخرونا وأن نتباهى أمامهم ويتباهوا أمامنا متصورين أننا حققنا أحلامنا .

أنا لست تحسين الأوضاع ولا الاسلام أيضاً كذلك ، إنما الاسلام ضد أن نصير عبيداً لهذا الصنم الذي اتخذه الناس إلهاً يعبد . .هل تصدق أنني طوال إنشغالي بتجديد المطبخ لم أفكر إلا في المطبخ ، وأنني أنا العارف بالله قد إنصرفت عن التفكير في الله ، بل إنني استخدمت الله في قضاء مآربي . صرت أدعوه ليجّر لي المتعهد من بيته أو من البيوت الأخرى التي يعمل فيها ، وكنت طوال الوقت مستغرقاً في التفكير في هذه الورطة التي وقعت فيها . فإذا أويت إلى مضجعي لحقت بي المشكلة فدخلت فراشي معي وتوسدت وسادتي بجانب رأسي . . فإذا نمت حلمت بمشكلتي ، فإذا قمت من الليل وجدت المشكلة مستيقظة بانتظاري . قد تقول إن ما أقصه مبالغة ، وإنني إنسان إنفعالي ، وإن معظم الناس يجددون مطابخهم وأثاثهم وحتى بيوتهم وما يهمني أنا أن أصف ما حدث لي ، وما حدث لي جريمة ، جريمة بحق نفسي ودِيني وبحق إلهي أيضاً . مشكلة العالم العصري أنه يستولي على الإنسان ويمتصه ويستنفد قواه بل

ويهلكه . مشكلة عالمنا اليوم أننا بدلاً من أن نحيا لنحقق الغاية من خلقنا فإننا نعيش عبيداً لمتطلبات العصر التي لا نهاية لها .

لقد ذكرت لك مراراً مسألة جلو القلب وإعداده لاستقبال الأنوار ، فإذا كانت قضية المطبخ قد شغلت قلبي شهراً وتجديد الأثاث شغلته عاماً والانتقال إلى بيت أفضل تشغله أعواماً فكيف ومتى يمكن أن يتحقق جلاء مرآة القلب يا ترى ؟

السؤال يبقى أن لماذا خُلق الإنسان ولماذا يحيا . وهَمُّ الإنسان العصري تحقيق مستوى من العيش أفضل . إنه يبذل كل ما عنده من أجل تحقيق هذا الهدف . زميلك مثلاً لم يدخر شيئاً من إنسانيته ومن ماء وجهه إلا وبذله ، ومن أجل ماذا ؟ من أجل تحقيق المستوى الأفضل . وكما قلت لك فإن النتيجة لا تساوي الثمن ، فكلما ارتفعنا إلى مستوى أفضل عدنا فوجدنا أنفسنا في مكاننا ، كيف ؟ لأن العادة لنا بالمرصاد ولأن الرتابة تجعل من كل مستوى أفضل مستوى أقل بالتدريج . الرتابة تعيد ساكن القصر إلى سكن الكوخ من حيث يدري ولا يدري . ساكن القصر اعتاد القصر ، اعتاد رؤية الأثاث والرياش والسيارات والخدم والطعام الجيد والملبس الناعم بل واعتاد حتى الزوجة الحسناء فعلى مستوى المشاعر لا جديد في عالم الإنسان . . إنه ينتقل من مستوى إلى مستوى دون أن يؤثر هذا الانتقال في تجديد مشاعره . قد يثيرها زمناً فيفرح أياماً ولكن لا يلبث أن يعتاد كل شيء . فإذا كان هذا هو الواقع فما الفائدة من هذا التعب وهذا الجهد اللذين بذلهما للوصول إلى المستوى الأفضل ؟

عالم المادة لا يمنح الإنسان ما يبحث عنه الإنسان بالفطرة . إن عالم الغرائز والأهواء وإشباع حاجات الأنا هو مثل ماء البحر كلما شرب من الظمآن إزداد ظمأه ، ولا أدل على هذا من الحالة التي وصل إليها الغرب اليوم بعد أن قطع أشواطاً بعيدة على طريق الحضارة المادية . السويد وهي أرقى دولة في العالم تبلغ نسبة الانتحار فيها أعلى نسبة في العالم ، وتثبت الإحصائيات أن ثلث سكان الشعب الأمريكي مريض نفسانياً ، كما وتثبت الإحصائيات أن ربعه يتعاطى المخدرات ويدمن الشراب .

الغرب شرب الكأس ودفع الثمن . جعل من الدنيا جنة فتكشف وجه الحسناء عن هولة . لقد آمنوا باللذة وبأن الدنيا قادرة على أن تمنحهم السعادة المطلوبة فكانت النتيجة وبالاً عليهم . فالروح كما سبق أن ذكرت تنشد شيئاً ليس موجوداً في هذا العالم ، والجريمة التي ارتكبتها الحضارة المادية أنها أرادت أن تجعل من الإنسان صنماً مادياً همه المادة واللذة وإشباع الرغبة وتحقيق الأحلام من بلوغ الغنى وتحقيق مستوى من العيش أفضل .

لقد وصفت لك حالي بعد أن شرعت في تحسين البيت . . لقد تحولت من حال إلى حال . كنت شيخاً فلم أعد شيخاً ، وكنت عارفاً بالله فنسيت الطريق إلى الله . لقد ظللت أرى رؤى في الليل ولكنني لتعبي ولاستغراقي في همومي اليومية لم أعد أنتبه من المنام لأشرع في تذكره وتعبيره واستخلاص الحكمة منه .

وشع من عينيه ذلك الوميض الأخاذ وهو يستطرد قائلاً :

ـ قال عليه السلام : يحمي الله عبده الدنيا كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه . ولقد حماني الله ، كيف ؟ لقد جعلت أقارن بين ما كنت عليه من نعيم وبين ما صرت إليه من جحيم فعلمت أين الجنة وأين النار . الجنة ههنا يا بني ، في القلب ، في راحة القلب ، في طمأنينة القلب وسكينته ، لأن الله في القلب . الله هو الغبطة وهو السعادة وهو الانسجام . . هو الذي يمنح الراحة للإنسان . فالوصول إلى الكلي هو الوصول إلى المطلق ، وأية غاية يمكن أن تبلغ مدى كهذه الغاية ؟ لقد عدت فرفضت الرفاه المادي والعيش الرغد والتقلب في أحضان السعادة الأرضية . رفضت الجري مع الناس خلف الدرهم والدينار لتأمين الحصول على متطلبات العصر . لقد انسحبت من عالم السيارات والأثاث والسجاد والهدايا والطعام الطيب والمفرش اللين . لقد انسحبت إلى عالمي أنا ، إلى ذاتي ، ذاتي الجوانية ، ذاتي الكونية ، ذاتي الكلية ، فوصلت المطلق ووجدت ريح الآبدية . إيه ، ترى متى يدرك الإنسان أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان وأن ليس للخبز وحده يحيا ؟ متى يدرك أن الساعي للدنيا كالساعي لسراب بأرض بلقع يحسبه الظمآن ماء فإذا جاءه لم يجد شيئاً .

ها هوذا إنسان الغرب ما زال يركض ويشقى ويكد ويتعب من أجل الوصول إلى مستوى العيش المطلوب ، وتكون النتيجة رحلة في طريق العمر ذات أهداف مؤقتة ، خاوية ، يحسبها الظمآن ماء وهي ليست إلا سراباً .

الغرب يركض بينما هناك في الشرق ، في الهند مثلاً ، تجد نساكاً يفعلون الأعاجيب . . ترى فقيراً هندياً جالساً القرفصاء أو متمدداً على سرير من مسامير ، يظل يحدق إلى الشمس حتى يعمى ، ومع هذا فهو يستمر في تحديقه إلى عين الشمس عشرين عاماً وثلاثين عاماً . وتسمع عن سكان الأديرة ما لا يصدق . فكم من شهير ، وكم من عظيم ، وكم من غني ، وكم من حكيم دخل الدير فما خرج منه وقضى عمره فيه ناعماً بطمأنينة القلب والبال ، وقد وجد في الدير الذي قد يكون في قلب صحراء ما ظل يبحث عنه من قبل طوال حياته .

والاسلام ليس نسكاً يا بني ولا زهداً ، وهو دعوة إلى التوازن بين الدين والدنيا ، بين الأرض والسماء ، بين المادة والروح ، بين الجسد والقلب . ولنتذكر أن النبي مات ودرعه مرهونة عند يهودي ، وقضى فوجدوا تحت وسادته دراهم معدودة . لنتذكر هذا النبي الكريم والإنسان العظيم الذي وصاه ربه بألا يمد عينيه إلى زينة الحياة الدنيا ، وأن من مد عينيه إليها فُتن . لنتذكر أن فاطمة بنت محمد زفت إلى علي فكان مهرها عدداً من دراهم فضية ، وأن أثاث بيتها كان حشية تنام عليها هي وزوجها وطستاً تغسل فيه ووعاء تطبخ فيه ، ولم يكن غطاؤهما يكفيهما فإذا غطيا رأسيهما تكشفت أقدامهما .

لنتجه من الخارج إلى الداخل يا بني ، ولنكف عن مَدِّ العينين إلى الدنيا . فهاهنا على ظهر هذه الأرض الضنينة تمثل مسرحية ملهاة مَن صدّقها خرج منها خائباً تعساً خاوي الوفاض ، لا يدري لم دخل ولا كيف عاش ولا بم خرج .

كلمات الشيخ كنت أتذكرها وأنا منطلق في جولات الصيد مثلما أتذكر وجه الصياد الجندي الذي سأل الشيخ عما يجعله يبرح بيته باكراً في أصباح

الشتاء فأجابه الشيخ : لأنني صياد مثلك ، أنت صياد الطيور وأنا صياد الحقيقة .

أجل صياد الحقيقة هو الشيخ ، أراه من بعيد جالساً مستنداً إلى شجرة الجوز وأمامه الصفيحة التي يتصاعد منها الدخان ، سابحاً في ملكوته الخاص بعيداً عن هذا العالم .

كان في جلسته تلك وحيداً ، يجلس ساعات طويلة مفكراً متأملاً مقلباً وجهه في السماء ، وكان له ثم صديق . . أجل كان له صديق وأحياناً صديقان . الصديق الأول الموسيقى ، فالشيخ كان لديه مذياع صغير يحمله معه في رحلاته ، يدير إبرته حتى يقع على إذاعة تبث موسيقى . كانت الموسيقى أحب العوالم إليه ، فهو يصفها بأنها الانسجام لأنها تناغم الكون العميق وأنها أنغام الروح الكلي . وتراه وهو يستمع الموسيقى كأنه أم تسمع صوت طفلها الرضيع ، وعلى وجهه طابع من الاهتمام الشديد بما يسمع . . وحين كان الحظ يسعفه فيقع على أغنية لأم كلثوم يبدو وكأنه فاز بكنز عظيم . كان يحب صوت أم كلثوم ، وهو يصف صوتها بأنه شفاف دافىء وفيه شيء يثير رعشة روحية عميقة عند المستمع توصله بروح الكون .

أما الصديق الثاني فكان القط البري الذي صار صاحبه . لقد سبق ووصفت هذا القط ، وكيف ألِف الشيخ ، وكيف ينام على صدره . . إلا أن ما لفت نظري ذات يوم هو أن الشيخ ذكر أن للقط رمزاً ، فهو النفس المطمئنة التي رجعت إلى ربها راضية مرضية ، كما أنه كان يقول في الكلب إنه صفة النفس الحيوانية وأنه صفة الغضب من هذه النفس .

لقد تكامل عالم الشيخ إذن . . الموسيقى تجعله يقترب من روح الكون المطلق ، والقط يجعله في سلام مع نفسه . . وحتى الكلاب البرية التي كانت تمر به أحياناً كانت تتوقف عنده فيطعمها من بقايا الخبز والطعام وهي تبصبص بأذيالها مسرورة .

لقد دخل الشيخ عوالم ذاته فما خرج منها . وكم من مرات فاجأني المطر

وأنا بعيد عن الشيخ فأسرع إلى شجرة زيتون لأحتمي بمظلة أغصانها وأوراقها الكثيفة ثم أنظر في اتجاه الشيخ الذي كان يتحسب للطوارىء فيحضر معه مظلة صغيرة ينشرها فوق رأسه معاوداً تأمله واستغراقه في عالم أفكاره . . وكم من مرة اقتربت من الشيخ من جانب أو من خلفه ثم لا ألبث أن أقف على مقربة منه وأنا أتأمله غير مصدق عيني . فالشيخ يبدو مثل تمثال أبي الهول القابع في الصحراء الصامت منذ ألوف السنين ، ينظر إلى الصحراء بعينين لا يمكن أن يصفهما قلم . أنا أعلم أن ليس لأبي الهول عينان ، وأن له بدلاً من العينين محجرين ، وأن محجريه هما اللذان يقومان مقام العينين في التعبير . فالفنان استطاع أن يجعل من المحجرين عينين إذا صح القول . . أما الشيخ فما كان له عينان ولا محجران لأنه يكون قد أغمض عينيه وهو في جلسته التأملية هذه . . ومع هذا فأي جلال وأية هيبة شع من هذا المحيا الشفاف الذي بدا قد صيغ من الشمع الخالص .

وأحياناً كان الشيخ يفتح عينيه ، ومع هذا فهو لم يكن يرى أمامه أحداً ولا شيئاً . لا يمكنني أن أصف كيف تكون عينا الشيخ وهو في حالة الاستغراق هذه ، إنما يمكنني القول إن الروح المشعة في عينيه لم تعد من هذا العالم . أجل ، تبدو عيناه وهو على هذا الحال مثل قطعتي بلور ، بلور ولكنه صاف ، وفي أعماق هاتين العينين تبدو تلك النظرة التي كانت تثير خوفي وشفقتي . كنت أخاف على الشيخ عندما أرى عينيه وهما على هذا الحال من الانفصال عن العالم ، وكنت أشفق على صاحبهما الذي يبدو وكأنه قد رحل بالفعل عن هذا العالم إلى عالم آخر بعيد غامض لا أدري أنا أو يدري أحد عنه شيئاً .

من رآى إنساناً وهو في حالة شرود ونظر في عينيه فهم ما أعنيه وأنا أحاول أن أرسم لوحة لوجه الشيخ ولعينيه بالكلمات .

كنت أشعر بأن علي أن أعيد الشيخ من ذلك العالم البعيد والغامض . فأن أراه وهو على هذا الحال من الانفصال وكأنه فارق الحياة وهو جالس فهذا أمر كان يبعث فيّ الرعدة . الشيخ بالفعل كان ينتقل من عالم إلى عالم ، ومن الأرض

إلى السماء ، وأنه دق أبواب المجهول وولج فلك الأبدية حتى صار كوكباً يدور في ذلك الفلك البعيد .

آه ، كم كنت أخاف على الشيخ وأخافه . فأن ترى إنساناً أمامك لم يعد أمامك ، أو على الأصح لم يعد مثلك فهذا أمر مخيف بالفعل .

الشيخ كان حياً ، حياً يتنفس ، ما في ذلك شك ، ومع هذا فالشيخ لم يعد منا . كان منا ومعنا ولم يعد لا منا ولا معنا .